نقص تشكيلاتنا الاجتماعية

هل نحن أمة ؟ !

بقلم الأستاذ سيد قطب

لست متشائما ، ولا سيئ الظن ، حين أسأل مثل هذا السؤال "هل نحن أمة ؟ ! ".

والواقع أن أجرأ الأجرياء يتردد طويلا قبل الإجابة على هذا السؤال فنحن — بالقياس إلى مظاهر النشاط — حكومة ! لأن الحكومة هى التى تقوم بكل شيء ، بينما نحتاج إلى قسط كبير من التسامح لنقول : إننا أمة تتحقق فيها مظاهر الاجتماع الأممى وشرائطه .

ذلك أن أظهر الفوارق بين حياة الأدغال وحياة المجتمع ، أن مطالب الفرد هناك هى الدستور المتبع ، ومطالب الجماعة هنا هى القانون ، وأن الجماعة مكلفة أن تعطف على المتخلفين فيها وتحاول إصلاحهم .

فمن يستطيع منا أن يقول : "نحن أمة" حين ينظر إلى جهودنا فى هذا السبيل ، وحين يغفل من الحساب مجهود الحكومة وهو كل شيء ؟ والمقياس الصحيح الذى يمكن تطبيقه هو مقياس الأرقام ، فلتأمل لحظة فى مجتمعنا المصرى ، لنرى كم مريضا فقيرا فى مصر ، وكم سريرا فى المستشفيات العامة ، وكم طبيبا يخصصون لعلاج هؤلاء المرضى ؟

وكم يتيما وعاجزا ومشردا ، وكم مكانا فى الملاجئ معدا لإيوائهم ؟

وكم أرملة وأيما وعانسا فقيرة ، وكم مشغلا يتسع لهن أو مبرة تعاونهن وتجد لهن الزوج الصالح أو العمل النافع الذى يقيهن شر البغاء والمرض والانحلال ؟

وكم حدثا تعج به الطريق ، وكم حدثا لفظته الإصلاحية بعد انقضاء مدته بها ، وكم هيئة تعاون هؤلاء الصبية قبل الإصلاحية أو بعدها وتلحقهم بدوائر الأعمال ؟

وكم سجينا سدت فى وجهه طرق الكسب الحلال بعد انقضاء مدة عقوبته ، لأنه قد يكون أخطأ مرة واحدة فى حياته ، وكم جماعة تتولى إصلاحه وتطهيره وضمانته لدى المجتمع ليستطيع العودة إلى حياة الشرف والاستقامة والنزاهة ؟

وكم متعطلا لا يجد قوت يومه ، وكم نقابة أو جمعية تتولاه مدة تعطله ، وتجتهد فى إيجاد عمل يمونه ؟ .

بل لننظر : كم طالبا يرغب فى العلم ثم لا يجد له مكانا فى المرحلة التعليمية التالية، أولا يستطيع نفقات الدراسة مع نبوغه وتفوقه ؟

والنسبة بين المطلوب والموجود فى هذه الشؤون كلها وفى مثيلاتها هى التى تحدد مبلغ رقينا الاجتماعى بل الإنسانى ، وهى التى تعين مقدار مافى طبيعة هـذه الأمة من الحيوية والاستعداد للحياة ، وهى التى تملى علينا جواب هذا السؤال " هل نحن أمة ! " .

فهل هذه النسبة ترفع رءوسنا وتقوى آمالنا، أم هى على العكس تفتح الأعين على الهول المفزع الذى يكتنفنا ولا نشعر به لفرط استخفافنا بالأمور ؟

إن مصر هى البلد العجيب الذى يرى الحـدث الصغير مشردا فى الطريق ، فلا يحرك ساكنا ، حتى إذا اشتد ساعده وشب مستهترا حانقا على هذا المجتمع الذى لم يكرمه أو يحفل به مرة واحدة ، فراح يجازيه على إهماله بالجريمة ، ارتفعت الأصـوات من كل جانب بالإنحاء على الجريمة ، ولوم الحكومة ورجال الشرطة على الإهمال .

وإن مصر لهى البلد العجيب الذى يرى المشردة البائسة فلا يصون وجهها، ولا يحتفل بها ، أو يعطف عليها ، حتى إذا زلت وانحدرت إلى مهاوى الرذيلة ارتفعت الصيحات ، كل جانب . " الرذيلة : ألغوا البغاء . الحكومة لا تحافظ على التقاليد ! "

وإن مصر لهى التى ترى المرضى الفقراء تفتك بهم الأمراض فلا تمد يدها لانتشالهم من براثن الأوبئة والأمراض المتوطنة ، حتى إذا لم تجد الحكومة من الأجسام القوية ما يحقق الرغبة فى تقوية الجيش ، ولم تجد الجامعة الصحة التى تضمن الجهد العلمى والتفوق الذهنى ارتفعت الأصوات من كل جانب : " الحكومة مقصرة فى تقوية الجيش . الجامعة لا تخرج النوابغ الأكفاء ! "

* * *

بين يدى وأنا أكتب هذه الكلمة تقريرات مصلحة السجون فى السنوات الخمس الأخيرة وفى كل منها تدوى صيحة المـدير العام منذرة بخطر إهمـال الأحداث ، وبنداء الهيئات والجمعيات لمعاونة المصلحة فى انتشالهم من السقوط وفى رعايتهم بعد مفارقة الإصلاحيات .

وفى التقرير الأخير يقول :

" بجهودنا إنما تحصر فى بضع مئات من الأحداث داخل الإصلاحيات من بين آلاف يفتقرون إلى ذلك ومازالوا هنالك فى الأحياء ، مبعثرين فى المدن وغيرها ، ولا سبيل إلى إيصال وسائل الإصـلاح إليهم ، أو لا سـبيل لهم إلى الوصـول لمنشآت الأحداث من صلاحيات أو ما إلى الاصلاحيات من دور التنشيء .

" فالجهود التى تبذلها الجماعات المنظمة داخل مواطن الفقر والبطالة وفساد المعيشة وانحلال العائلة واعتلال الصحة ، أجدى لمصلحة الأحداث المتشردين أنفسهم وأبعد مدى لمصلحة المجتمع فى سبيل مقاومة الأسباب الأساسية لاستشراد الأحداث والقضاء على الاستشراد فى البلاد .

" فالخير كل الخير فى أن يعمل على منع وقوع الأذى لا أن يعالج الضر بعد وقوعه " .

ويعرض التقرير لناحية أخرى أشد خطرا على الأخلاق من المشردين الأحداث ، تلك هى مشكلة المشردات الحديثات ، اللواتى تخرجهن الإصلاحية فى سن الثامنة عشرة أى سن الفتنة والنضوج ، وفى هذا يقول :

" ليس التشرد وحده علة نكبة الفتيات فى أعز ما يحتفظن به ، أو ما يجب على أوليائهن أن يسهروا على حمايتهن منه ، فقد عثر بين الأهل وبين الأولياء على من وقعن فريسة الشره الجنسى ، حيث كان يؤتمن فى كنفهم عليهن .

" ومن المؤلم أن تقع أمثال هذه المآسى على القاصرات بين الإحدى عشرة والخامسة عشرة .

" وما من شك والحالة هذه فى المصير الواحد التعس لمن ينكبن — وهن مازلن فى ميعة العمر — لو لم يهيأ لهن سبب جديد يكسبهن بالتعليم و بالأخلاق مناعة جديدة .

" و إصلاحية البنات ، دعامة من دعامات الصيانة فى هذا الصدد ، و إليها يرجع فضل كبير وكثير فى إنقاذ فتيات وطفلات كن على شفا الهاوية ولم يقعد بنا العبء عند حد قبول البنت فى الاصلاحية ، حتى إذا أو جبت علينا نهاية مدة الحكم ، أو بلوغ سن الثامنة عشرة من العمر إخراجها أخلينا سبيلها .

" بل ذهبنا الى حد التحرى بمعرفة جهات الإدارة قبيل ذلك الموعد عن سمعة وأهلية الأهل ، الذين تنوى العيش معهم ، ولكن تكشفت لنا — مع الأسف — حقائق خالفت ذلك " .

هذه هى الهاوية التى تطلعنا عليها تقارير مصلحة السجون ، فأين " جيش الخلاص " يتولى هؤلاء الغلمان قبل الإصلاحية وبعدها . ويتولى خريجى السجون والايانات و إصلاحيات الرجال ومدمنى المخدرات و يردهم الى الحياة الشريفة المستقيمة ؟

وأين الجمعيات النسوية تتولى هؤلاء المشردات بالعطف والرعاية والصون ، وتعد لهن المستقبل الشريف ، وتحميهن من خطر السقوط ؟

إن كل صيحات المتظاهرين بالغيرة على الأمن العام وعلى الأخلاق لتبدو سخيفة تافهة مالم يصاحبها عمل جدى منظم لتلافى هذه الحال . ولست أرى معنى لارتفاع صوت واحد بالبكاء على الخلق والتقاليد ، أو المطالبة بإلغاء البغاء قبل أن تنظم الجهود للقضاء على أسباب التدهور الى هاوية البغاء .

و إن انقاذ فتاة واحدة من المعرضات للسقوط لأنفع للأمة من ألف خطبة فى مؤتمر وألف مذكرة للطالبة بحقوق المرأة ، لأن أول حقوقها صيانتها عن الرق الأبيض الذى تباع فيه الأعراض والأجسام .

ولست أرى كذلك معنى لتشديد جريمة العود على المجرمين العائدين ، قبل أن توجد الهيئات التى تتولى كل مجرم بعد مغادرته السجن وتهيئ له طريق الحياة الشريفة . ولا لتطبيق قوانين التسول قبل أن توجد الملاجئ والمستعمرات الزراعية والصناعية الكافية لكل لاجئ فى جميع أنحاء البلاد .

إننا نعاقب هؤلاء ونشدد فى عقوبة أولئك رعاية لحق المجتمع ، فاذا قصر المجتمع فى حماية نفسه ، فيجب أن يلقى بعض عواقب هذا التقصير .

سيد قطب

من حكم شوقى

— البلشفية قيصرية ، لها جبروت الملك وسرفه ، وليس لها جلاله ولا شرفه .

— إذا رأيت ساعيا مجتهدا تمطله الأسباب وتطاوله الغايات فاعلم أن حظه قاعد .

— السجون اذا امتلأت انفجرت .

— من ظن أنه يُرضى ابدا ، يوشك ألا يُرضى أحدا .

— فراش المتعب وطىء ، وطعام الجائع هنىء .

— من استقل بنفسه استوحش ، ومن استقل برأيه ضل .

— الشباب مُلاوة كلُّها حلاوة .